مجلة اللغة العربية والعلوم الإسلامية المجلد (٣) العدد (١١)- سبتمبر ٢٠٢٤م
الترقيم الدولي للنسخة المطبوعة: x ١٤٥-٢٨١٢ الترقيم الدولي للنسخة الإلكترونية: ٢٨١٢- ٥٤٢٨
الموقع الإلكتروني: https://jlais.jourals.ekb.eng

منهج الاجتهاد عند الإمام ابن عبد البر القرطبي (٤٦٣هـ)

د. محمد تقي الله الطالب جدو
أستاذ القرآن وعلومه في كلية أصول الدين- جامعة العلوم الإسلامية بالعيون-
الجمهورية الإسلامية الموريتانية
m.bouna2000@hotmail.com

Journal of Arabic Language and Islamic Science Vol (٣) Issue (١١)- spt2024
Printed ISSN:2812-541x On Line ISSN:2812-5428
Website: https://jlais.journals.ekb.eg/

منهج الاجتهاد عند الإمام ابن عبد البر القرطبي (٤٦٣هـ)

د. محمد تقي الله الطالب جدو

أستاذ القرآن وعلومه في كلية أصول الدين– جامعة العلوم الإسلامية بالعيون- الجمهورية الإسلامية الموريتانية

البريد الإلكتروني m.bouna2000@hotmail.com

الملخص:

يسعى هذا البحث إلى إلقاء الضوء على منهج الإمام ابن عبد البر الأصـــولي باعتباره أحد الأعلام البارزين في مسيرة الفكر الإسلامي في مختلف المجالات وعلى جميع الأصعدة عبر العصور في الفقه والأصول والحديث واللغة وغيرها من العلوم، وذلك نظرًا لتلك التجربة الثرية المستندة إلى المعرفة العلمية الواسعة المتبحرة كمـــا أسلفنا، وقد جاء ذلك في مبحثين تناول الأول منهما حياة الإمام ابن عبد البر، بينمـــا تناول الثاني منهما منهجه الأصولي وجاء كل منهما في مطالب رجاء عموم الفائدة.

هذا وقد توصلت الدراسة إلى العديد من النتائج المهمة منها: أنه بـــدأ حياتـــه العلمية في سن صغير، فهو يدعو إلى ذلك ويحض عليه، ويرى أن الاجتهاد فريضة شرعية وضرورة علمية، وقد نظم منهجه في منظومة شعرية اختتمها بالوصايا التي أوصى فيها طلبة العلم في زمانه مبيناً لهم الطريق الذي ينبغي للطالـــب أن يســـلكه ليصل إلى مبتغاه.

الكلمات المفتاحية: منهج الاجتهاد، الإمام ابن عبد البر القرطبي، حقيقة الاجتهاد.

The method of ijtihad according to Imam Ibn Abd al-Barr al-Qurtubi (463 AH)

D. Muhammad Taqi Allah, the student, is a grandfather
Professor of the Qur'an and its Sciences at the Faculty of Fundamentals of Religion - University of Islamic Sciences in Laayoune– Islamic Republic of Mauritania
Email : m.bouna2000@hotmail.com

Abstract:

This research seeks to shed light on the fundamentalist approach of Imam Ibn Abd al-Barr as one of the prominent figures in the process of Islamic thought in various fields and at all levels throughout the ages in jurisprudence, principles, hadith, language and other sciences, due to that rich experience based on extensive scientific knowledge as well as Our predecessors, and this was mentioned in two sections, the first of which dealt with the life of Imam Ibn Abdul-Barr, while the second of them dealt with his fundamentalist approach, and each of them came in demands of the hope of general benefit.

The study reached many important results, including: He began his academic life at a young age. He calls for and encourages it, and believes that diligence is a legal obligation and a scientific necessity. He organized his method into a poetic system that he concluded with the commandments he gave to students of knowledge in his time. Showing them the path that the student should take to reach his goal.

Keywords:

Approach to Ijtihad, Imam Ibn Abd al-Barr al-Qurtubi, The Truth of Ijtihad.

مقدمة

إن الحمد لله نحمده ونستغفره ونستهديه ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له، ونشهد أن لا إله إلا الله، ونشهد أن محمدًا عبده ورسوله صلى الله عليه وسلم وآله وأصحابه إلى يوم الدين وسلم تسليمًا كثيرًا.

يعد الإمام ابن عبد البر أحد الأعلام البارزين في مسيرة الفكر الإسلامي في مختلف المجالات وعلى جميع الأصعدة عبر العصور في الفقه والأصول والحديث واللغة وغيرها من العلوم، وقد رأيت من خلال هذا البحث أن أكتب عنه وعن منهجه الأصولي أي النهج النظري الذي أرى أنه الأولى والمطلوب في بيان الأصول التي يرجع إليها الفقيه المستنبط للأحكام، مع ملاحظته على معاصريه في مناهجهم وطريقة تعاملهم مع الفتاوى والنوازل التي تواجههم، وذلك نظرًا لتلك التجربة الثرية المستندة المعرفة العلمية الواسعة المتبحرة كما أسلفنا، وقد جاء ذلك في مبحثين تناول الأول منهما حياة الإمام ابن عبد البر، بينما تناول الثاني منهما منهجه الأصولي جاء كل منهما في مطالب رجاء عموم الفائدة.

المبحث الأول: حياة الإمام بن عبد البر

المطلب الأول: نشأته ودراسته:

أبو عمر يوسف بن عبد الله بن محمد بن عبد البر بن عاصم النمري القرطبي؛ إمام عصره في الحديث والأثر وما يتعلق بهما، روى بقرطبة عن أبي القاسم خلف بن القاسم الحافظ وعبد الوارث بن سفيان وسعيد نصر وأبي محمد ابن عبد المؤمن وأبي عمر الباجي وأبي عمر الكلمنكي وأبي الوليد ابن الفرضي وغيرهم. وكتب إليه من أهل المشرق أبو القاسم السقطي المكي وعبد الغني بن سعيد الحافظ وأبو ذر الهروي وأبو محمد ابن النحاس المصري وغيرهم(١)، ولد يوم الجمعة في الخامس من ربيع الثاني سنة368هـ(٢)، وقيل: ولد سنة 363م، والأول أصح كما حققه ابن يعيش(٣).

جده: هو محمد بن عبد البر كان زاهدًا منقطعًا، معروفًا بالتزهد والعبادة ومبرزًا ملازمًا للعبادة من المعروفين بالزهد، عني بعلوم القرآن والتفسير، إلا أن العبادة كانت أغلب عليه توفي :٣٧٩هـ(٤).

أما والده: أبو محمد عبد الله بن محمد كان محدثًا فقيهًا عابدًا منقطعًا: تتلمذ على أحمد بن دحيم، وأحمد بن سعيد بن حزم توفي ٣٨٠هـ(٥)، ورغم أنه لم يأخذ على أبيه لصغر سنه حين وفاة أبيه(٦).

فيبدو أنه قد بدأ حياته العلمية منذ الصغر، فهو نفسه يدعو إلى ذلك ويحض عليه، فقد عقد في كتابه: جامع بيان العلم وفضله بابًا بعنوان:(باب في فضل العلم في الصغر، والحض عليه)(٧)، وقد افترض ابن يعيش أنه في صغره: اتبع أسلوب التعلم السائد حينذاك، فلقن بعض الآي سماعًا، ثم القراءة ثم الكتابة بواسطة لوح

---

(١) وفيات الأعيان، ١١/١، والصلة في تاريخ أئمة الأندلس، ٦٤٠/١، ووفيات الأعيان، ٦٦/٧، وشذرات الذهب، ٢٦٧/٥، والديباج المذهب،٣٥٧ ، وترتيب المدارك ، ص٣٥١، وطبقات الحفاظ للسيوطي، ص،٤٣٢.

(٢) الصلة في تاريخ أئمة الأندلس،ج٢ ص٣٧٨ .

(٣) في رسالة ابن عبد البر حياته وآثاره ص ٥٢.

(٤) التكملة، ص ٣٧١، تاريخ علماء الأندلس، ج ٢، ص١٩.

(٥) الديباج ص ٣٥٧

(٦) الديباج ص،٣٥٧

(٧) جامع بيان العلم ،ج١،ص٩٩

خشب[١]، وهكذا شرع في الجمع والتحصيل، والسماع على جلة العلماء، فبعد حفظ القرآن تعمق في مختلف العلوم الشرعية: كالفقه والأصول والحديث والسيرة والتاريخ وعلم الرجال واللغة والشعر والأدب حتى صار من أبرز أعلام عصره، وكانت دراسته بقرطبة[٢] مسقط رأسه حيث كانت تعج بالعلماء الأندلسيين، والوافدين إلى الأندلس، ولم يكن في خروجه عنها إلا لمامًا حيث كان يلتقي بعض الشيوخ بإشبيلية[٣] ومما يشهد لهذا قصته مع ابن حزم.

حيث كان يرافقه في إشبيلية وكان هو والحافظ أبو عمر بن عبد البر يتسايران في سكة الحطابين بإشبيلية فاستقبلهما غلام وضئ الوجه فقال أبو محمد إن هذه الصورة حسنة فقال أبو عمر لعل ما تحت الثياب ليس هناك، فقال ابن حزم[٤]:

وَذي عَذَلٍ فيمن سَباني حسنُه ... يُطيلُ مَلامي في الهوى ويقولُ
أفي حسنِ وَجْهٍ لاحَ لم ترَ غيرَه ... ولم تدرِ كيفَ الجسمُ أنتَ قتيلُ
فقلتُ له أسرفتَ في اللوم ظالمًا ... وعندي ردٌّ لو أردت طويلُ
ألم ترَ أنِّي ظاهريٌّ وأنني ... على ما بدا حتى يقومَ دليلُ

أما أولاده: فلم تذكر منهم المصادر إلا ابنه عبد الله، وابنته زينب، فعبد الله نشأ نشأة علمية، وأدبية حتى صار من أعلام الأدب، والبلاغة في عصره، وقلده المعتضد الوزارة[٥] حتى وشى به بعضهم إلى المعتضد فأدخل السجن، وقد شفع له، والده الإمام ابن عبد البر عند المعتضد، وخاطبه بهذه الأبيات:

قصدتُ إِلَيْك من شَرْق لغَرْب ... لتُبْصرَ مقلتي مَا حلّ سمْعِي
وتَعْطِفُك المكارمُ نَحْو أصْلٍ ... دعَاكُمْ رَاغِبًا فِي خيْرِ فَرْعِ
فَإِن جُدْتُمْ بِهِ من بعد عَفْوٍ ... فَلَيْسَ الْفضل عندكمُ ببِدْعِ
فوعْدَك كي يُسَكِّنُ خَفْقَ قَلْبي ... ويَرْقَأَ منْ جفوني سكْبُ دَمْعي[٦]

فقام، الأمير بتوديعه في جمع حافل، بعد أن أطلق سراح ولده.

---

(١) ابن بعيش ،ص٥٦

(٢) الديباج ص٣٥٧

(٣) نفح الطيب ج٣ ،٦٩، الجذة ،١٢٠،

(٤) وفيات الأعيان، ٣٢٧/٣/٣، وسير أعلام النبلاء، ٣٨٤/١٣، وتاريخ الإسلام، ٧٤/١٠.

(٥) الذخيرة، ص ١٢٥.

(٦) المغرب في حلى المغرب، ٤٠٨/٢.

المطلب الثاني: مكانته العلمية:

اشتهر الإمام ابن عبد البر داخل الأندلس وخارجها وذاع صيته، وكثر طلابه، والوافدون إليه للاستفادة؛ وذلك بسبب الثروة العلمية الكبيرة التي يحملها، وللاطلاع على مؤلفاته التي لا يكاد يوجد لها مثيل، خصوصًا بالنسبة لبيئة مالكية تهتم بكتاب الموطأ، وتقدمه على غيره، ولم تقتصر شهرته على عصره، بل امتدت لتشمل حتى بعد وفاته، بقدر ما بلغت كتبه القيمة التي صارت من أهم المراجع في فقه الحديث ورجاله.

وهكذا جاءت عبارات المؤلفين مليئة بالثناء عليه، فهذا القاضي عياض يقول: (برع براعة فاق فيها من تقدم من رجال الأندلس ورحل الناس إليه وسمعوا منه، وألف تآليف مفيدة، طارت في الآفاق)[١]، وقال الباجي: (لم يكن بالأندلس مثل عمر بن عبد البر في الحديث)[٢]وقال أيضًا:(أحفظ أهل المغرب، وألف في الموطأ تآليف مفيدة)[٣] وقال ابن فرحون: (شيخ علماء الأندلس وكبير محدثيها في وقته، وأحفظ من كان فيها لسنة مأثورة)[٤]وكلام الذهبي قريب من هذا[٥]، وقال هو عن نفسه:

تذكرت من يبكي عَليّ مداوما ... فَلم أر إِلَّا الْعلم بِالدّينِ وَالْخَبَر

عُلُوم كتاب الله وَالسّنَن الَّتِي ... أَتَت عَن رَسُول الله مَعَ صِحَة الْأَثر

وَعلم الأولى من ناقديه وَفهم مَا ... لَهُ اخْتلفُوا فِي الْعلم بِالرَّأْيِ وَالنَّظَر[٦]

المطلب الثالث: شيوخه، وتلاميذه:

أ- شيوخه:

أما شيوخه فقد سمع من مجموعة كبيرة من الشيوخ من أعيان قرطبة، التي كانت في ذلك الوقت مأوى للعلماء، إذ هي عاصمة الخلافة الأندلسية قبل تشتتها، وفيما يلي عرض لأهم الشيوخ الذين سمع منهم أبو عمر بن عبد البر: سعيد بن

---

(١) ترتيب المدارك ،ج٢،ص٣٥٢

(٢) الديباج،ص٣٥٧

(٣) الديباج ص،٣٥٧

(٤) نفسه

(٥) نفسه

(٦) الديباج المذهب، ٣٧٠/٢، وتاريخ الإسلام، ١٩٩/١٠، والتمهيد، لابن عبد البر، ١٣/١.

نصر[١]، وعبد الوارث بن سفيان أحمد بن قاسم[٢]، وأبو محمد بن أسد[٣]، وخلف بن سهيل[٤]، ووابن عبد المومن [٥]، وعبد الرحمن بن يحيى[٦]، وسعيد بن القـزاز[٧]، وابن زكرياالأشعري[٨]، وأبو عمر الباجي[٩]، وأبو القاسم بن أبي جعفر[١٠]، وابـن الجسور[١١]، وأبو الفتح بن سيبخت[١٢]، وعبد الحميد بن سعيد[١٣]، وأبو عمـر بـن المكوي[١٤]، وأبو الوليد بن الفرضي[١٥]، وإبراهيم بن شاكر[١٦]، ووأحمد بن فتح بن الرسان[١٧]، وأحمد بن سعيد الحصار[١٨]، وأحمد بن عمر الإشبيلي[١٩].

ب ــ تلاميذه: لابن عبد البر تلاميذ كثر؛ وذلك نظرًا لطول عمره، ومعارفـه المختلفة، وانتشار صيته، ومن تلاميذه:أبو العباس الدلائي[٢٠]، وأبو محمد بن أبـي قحافة[٢١]، وأبو عبد الله بن فتوح الحميدي [٢٢]، وأبو علي الغساني[٢٣]، وسفيان بـن

---

(١) الديباج المذهب، ٣٧٠/٢،.

(٢) نفسه.

(٣) نفسه.

نفسه. (٤)

(٥) نفسه.

(٦) نفسه.

(٧) نفسه .

(٨) نفسه .

(٩) نفسه.

(١٠) نفسه.

(١١) نفسه.

(١٢) نفسه.

(١٣) نفسه.

(١٤) الديباج المذهب، ٣٧٠/٢، وتاريخ الإسلام، ١٩٩/١٠، والتمهيد، لابن عبد البر، ١٣/١..

(١٥) نفسه.

(١٦) الجذوة،١٥٥

(١٧) تذكرة الحفاظ،ج٣، ١١٢٨

(١٨) نفسه

(١٩) نفسه.

(٢٠) ترتيب المدارك،ج٢،ص٣٥٢،الديباج ،ص٣٥٧

(٢١) نفسه.

(٢٢) نفسه

(٢٣) نفسه.

العاصي بن حر[١]، وأبو محمد علي ابن حزم الظاهري[٢]، وأبو الحسن ابن مفوز[٣]، وابنه عبد الله[٤]، وعبد الرحمن بن عيسى بن الحشا[٥]، وعبد العزيز بن عبد الملك بن شفيع[٦]، ومحمد بن سعد بن القدرة[٧]، وموسى بن عبد الرحمن بن أبي تليد[٨]، وعبد الرحمن بن ثابت[٩]، وعبد الله بن حيان الروش[١٠]، وأبو محمد بن عبد الله التجيبي[١١]، وعبد الجابر بن خلف الأزدي[١٢].

المطلب الثالث: مؤلفاته:

اشتهرت مؤلفات أبو عمر بن عبد البر داخل الأندلس وخارجها، وذلك نظرًا للقيمة العلمية الكبيرة لمؤلفاته، وعلى وجه الخصوص كتاب التمهيد، وكتاب الاستذكار، قال ابن فرحون(وألف في الموطأ تآليف مفيدة)[١٣]، وقال القاضي (وألف تآليف مفيدة طارت في الآفاق[١٤]، قال الذهبي:(وله تآليف لا مثل لها في جمع معانيها)[١٥]، وهذه المؤلفات أحصاها اليحصبي في ترتيب المدارك: يقول:" ألّف أبو عمر رضي الله عنه على الموطأ، كتاب التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد وهو عشرون مجلداً، وهو كتاب لم يضع أحد مثله في طريقه، وكتاب الاستذكار لمذاهب علماء الأمصار فيما تضمنه الموطأ من معاني الرأي والآثار، وكتاب

---

(1) الديباج ،ص٣٥٧.

(2) ترتيب المدارك،ج٢، ص٣٥٢

(٣) نفسه.

(٤) الديباج،ص٣٥٧

(٥) رسالة ابن يعيش، ص ١٣٠

(٦) نفسه.

(٧) نفسه.

(٨) نفسه.

(٩) رسالة ابن يعيش ،ص ١٣٠

(١٠) نفسه.

(١١) نفسه.

(١٢) نفسه.

(١٣) الديباج ،ص٣٥٧

(١٤) ترتيب المدارك ،ج٢،ص٣٥٢

(15) تذكرة الحفاظ،ج٢،ص١١٢٨

التقصي لحديث الموطأ، وكتاب الاستيعاب لأسماء الصحابة، وكتاب جامع بيان العلم، وكتاب الإنباه على قبائل الرواه، وكتاب الانتقاء في فضائل الثلاثة الفقهاء مالك والشافعي، وأبي حنيفة رضي الله عنهم، وكتاب البيان عن تلاوة القرآن، وكتاب بهجة المجالس وأنس المجالس، وكتاب أسماء المعروفين بالكنى سبعة أجزاء، والكتاب الكافي في الفقه في الاختلاف وأقوال مالك وأصاحبه رحمهم الله عشرون كتاباً والدرر في اختصار المغازي والسير، وكتاب القصد والأمم في التعريف بأنساب العرب والعجم وأول من تكلم بالعربية من الأمم. والشواهد في إثبات خبر الواحد. والبستان في الإخوان. والأجوبة الموعبة في الأسئلة المستغربة، وكتاب الاكتفاء في القراءة، وكتاب التجويد واختصار التمييز لمسلم، وكتاب الإنصاف فيما في بسم الله من الخلاف، واختصار تاريخ أحمد بن سعيد. والإشراف في الفرائض"[1].

ومن المفيد أن نشير إلى أن هذه المؤلفات تشمل القرآن وعلومه، والفقه، والحديث وعلومه، والتاريخ، والمغازي والسير؛ مما يؤكد على موسوعية ابن عبد البر في علوم الشريعة.

المطلب الرابع: وفاته:

بعد عمر طويل حافل بالعطاء العلمي المتواصل، توفي الإمام ابن عبد البر هو والخطيب البغدادي حافظ المشرق في سنة واحدة وهي سنة ٤٦٣هـ[2].

---

(١) ترتيب المدارك وتقريب المسالك، ١٢٩/٨-١٣٠.

(٢) ترتيب المدارك ،ج٢،ص:٣٥٢، والديباج ص:٣٥٧، والصلة ج ٢، ص:٣٧٨ وتذكرة الحفاظ،ج٣، ص:١١٢٨، وطبقات الحفاظ ،ص:٤٣٢.

المبحث الثاني: منهج ابن عبد البر في الاجتهـــــاد

المطلب الأول: تعريف الاجتهاد لغةً واصطلاحًا:

أــ الاجتهاد لغةً: مشتق من مادة "جهد" بضم الجيم، بمعنى بذلك الجهد، وهو الطاقة، أو بفتح الجيم، بمعنى تحمل الجهد وهو المشقة. فالاجتهاد في اللغــة بــذل الجهــد واستفراغ الوسع في تحقيق أمر من الأمور الشاقة، سواء أكان في الأمور الحســية، كالمشي والعمل، أو في الأمور المعنوية، كاستخراج حكم أو نظرية عقلية أو شرعية أو لغوية، قال ابن منظور:" بذل الوسع والمجهود.... بذل الوسع في طلب الأمــر، وهو افتعال من الجهد الطاقة، والمراد به رد القضية التي تعرض للحاكم من طريق القياس إلى الكتاب والسنة، ولم يرد الرأي الذي رآه من قبل نفسه من غير حمل على كتاب أو سنة..." (١)، وهو مصدر لفعل اجتهد يقال اجتهد يجتهد اجتهادًا، وجهد يجهد جهدًا وكلاهما بمعنى واحد، ويقال جهد الرجل في كذا أي جد فيه وبالغ، وجهد دابته وأجهدها أي بلغ جهدها، وحمل عليها في السير فوق طاقتهــا، وأصــابه جهــد أي مشقة(٢).

ويقول ابن فارس في كلمة جهد: أصله المشقة ثم يحمل على ما يقاربها يقــال جهدت نفسي و أجهدت، والجهد الطاقة(٣).

والجهد بضم الميم وفتحها: الطاقة، ولذلك قرئ لفظ جهدهم في قوله تعــالى: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ﴾ [التوبة: ٧٩]، بضم الجيم وفتحها.(٤)

ويقول الفراء الجهد بالضم: الطاقة والجهد بالفتح من قولك اجهد جهــدك فــي الأمر أي ابلغ غايتك، ويقال اجهد جهدك(٥)، أما المشقة فلا تكون إلا بالفتح كذا ذكر ابن الأثير، وقد فصل القول في معنى الجهد بالضم حيث قــال: (بالضــم الوســع والطاقة، فأما المشقة والغاية فالفتح لا غير)(٦).

---

(١) لسان العرب، (ج ه د)

(٢) لسان العرب، (ج ه د)، ٣/١٣٣-١٣٤.

(٣) معجم المقاييس ج١ ص٤٨٦

(٤) جامع البيان ج٦ ص:١٩٨

(٥) الصحاح ج١ ص٤٦٠،اللسان ج٣ص:١٣٤

(٦) النهاية ج١ ص٣٢٠

ب ــ الاجتهاد في الاصطلاح:

عرفه الرازي بقوله: (هو استفراغ الوسع في النظر فيما لا يلاحقه فيه لوم مع استفراغ فيه)[١]، وعرفه الآمدي بقوله:(استفراغ الوسع في طلب الظن بشيء من الأحكام الشرعية على وجه يحس بالعجز عن المزيد)[٢]، وعرفه البيضاوي بقوله: (هو استفراغ الجهد في درك الأحكام الشرعية)[٣]، وعرفه الشوكاني بقوله: (بذل الفقيه الوسع في نيل حكم شرعي عملي بطريق الاستنباط)[٤].

وتعددت تعريفات الأصوليين للاجتهاد وتنوعت عباراتهم، بل وتباينت أحيانًا، وهذا بالجملة يكشف عن مسلكين اثنين في تعريف الاجتهاد، الأول: من حيث اعتبار الاجتهاد فعل المجتهد، والثاني اعتبار الاجتهاد صفة المجتهد.

المطلب الثاني: حقيقة الاجتهاد عند ابن عبد البر وواقعه في زمانه.

مسألة الاجتهاد أخذت أبعادًا علمية كبيرة ودارت كثيرًا على ألسنة أهل العلم، وتناولتها أقلام المعاصرين، وأثارت اختلافًا عظيمًا بين من فتحوا الباب على مصراعيه، وبين المقلدين الحريصين على اتباع أئمتهم.

فالأولون يريدون من جميع الناس، أن يكونوا مثل أهل القرون المشهود لها، بينما ضيق فريق المقلدين الدائرة وشددوا تشددًا كبيرًا بدون استدلال أو تعليل، سوى ما يحكونه من أن باب الاجتهاد قد أغلق منذ عصر كذا ولا يجوز فتحه.

وبغيتنا الوصول إلى رأي هذا الإمام في مسألة الاجتهاد والتقليد هذه، و لما كان كتاب الاستذكار والتمهيد والكافي وغيرها من كتب ابن عبد البر الفقهية غير موضوعة للآراء النظرية، بل لتطبيقها فإني سأحاول تبيين رأيه من خلال كتاب جامع بيان العلم وفضله الذي أوضح فيه آراءه الأصولية نظريًا، وسيقتصر دور الاستذكار هنا على استخراج نماذج تطبيقية توضح مدى استخدامه لرأيه ومزاولته للاجتهاد.

---

(١) المحصول،ج٣/٢، ص٧

(٢) الإحكام ج٤ ص١٥٢

(٣) المنهاج ج٤ ص٥٢٤

(٤) إرشاد الفحول ص٢٥٠

وأول ما يستوقفنا في هذا المجال هو وصفه لحال معاصريه من فقهاء الأندلس، ونقده الحالة التي صاروا إليها، وانقسامهم إلى طائفتين، طائفة رضيت بجمع النصوص من الحديث دون اعتبار لمعانيها، ودون تدبر أو تمعن، لاحظَّ لهم في الفقه والأحكام، وإنما قصاراهم معرفة بعض الأسماء الغريبة أو الأحاديث المنكرة.

وطائفة أخرى اكتفت بآراء أشياخها، واستحسان أئمتها فحفظتها، أفتت بنصها وقاست عليها ما لم ينص عليه، واستنبطت من الأقوال التي تحتاج إلى دليل يدل عليها، محتجين بجهلهم وقصورهم عن الاجتهاد والاستنباط، دون أن يمنعهم ذلك من استخراج الأحكام مما نص عليه الشيوخ، والإضراب عن كتاب الله والإعراض عن السنن، وعن أقوال فقهاء الإسلام وإجماعهم واختلافهم.

ثم انتقد مسلك الطائفتين، وبين أن الحق وسط بينهما وهو الجمع بين الأدلة والفهم، مبرزًا أهمية الاجتهاد: بمعرفة الأصول، واستنباط الأحكام منها، دون الاسترسال في حفظ الفروع، ومحاولة الإحاطة بها، ودونها خرط القتاد، مما صاحبها إلى الاجتهاد والاستنباط، لكن في غير محله هذه المرة، بل في الأقوال غير المعصومة.

والآن أترك الكلام لقلمه السيال و هو يصور ذلك الواقع المزري يقول: (واعلم رحمك الله أن طلب العلم في زماننا هذا وفي بلدنا قد حاد أهله عن طريق سلفهم وسلكوا في ذلك ما لم يعرفه أئمتهم وابتدعوا في ذلك ما بان به جهلهم وتقصيرهم عن مراتب العلماء قبلهم فطائفة منهم تروي الحديث وتسمعه، قد رضيت بالدءوب في جمع ما لا تفهم وقنعت بالجهل في حمل ما لا تعلم، فجمعوا الغث والسمين والصحيح والسقيم والحق والكذب في كتاب واحد، وربما في ورقة واحدة ويدينون بالشيء وضده ولا يعرفون ما في ذلك عليهم قد شغلوا أنفسهم بالاستكثار عن التدبر والاعتبار فألسنتهم تروي العلم، وقلوبهم قد خلت من الفهم، غاية أحدهم معرفة الكنية العربية والاسم الغريب والحديث المنكر وتجده قد جهل ما لا يكاد يسع أحدًا جهله من علم صلاته وحجه وصيامه وزكاته، وطائفة هي في الجهل كتلك أو أشد لم يعنوا

بحفظ سنة ولا الوقوف على معانيها ولا بأصل من القرآن ولا اعتنوا بكتاب الله عز وجل فحفظوا تنزيله ولا عرفوا ما للعلماء في تأويله.....)[1].

وبعد هذا الكلام عاد أهل بلده بالخصوص: الأندلس، ومن جاورهم من أهل المغرب ليذكر تدني الحالة العلمية في زمنه، وكيف خالفوا أهل البلدان، قنعوا بالرواية دون النظر في حجة أو علة، و كيف خالفوا الإمام مالك في كثير من أصوله جهلًا منهم وظنًا أنهم أتباعه، وهيهات، حتى صاروا سخرية المذاهب الأخرى، حيث لا حجة يستطيع أحد تقديمها سوى الثناء على إمامهم.

ثم ذكر مواقف بعض العلماء الذين سبقوا في انتقاد هذه الحال يقول: (واعلم أنه لم تكن مناظرة بين اثنين أو جماعة من السلف إلا لتفهم وجه الصواب فيصار إليه ويعرف أصل القول وعلته فيجري عليه أمثلته ونظائره، وعلى هذا الناس في كل بلد إلا عندنا كما شاء ربنا، وعند من سلك سبيلنا من أهل المغرب، فإنهم لا يقيمون علة ولا يعرفون للقول وجها وحسب أحدهم أن يقول رواية لفلان ورواية لفلان ومن خالف عندهم الرواية التي لا يقف على معناها وأصلها وصحة وجهها فكأنه قد خالف نص الكتاب وثابت السنة، ويجيزون حمل الروايات المتضادة في الحلال والحرام، وذلك خلاف أصل مالك وكم لهم من خلاف أصول خلاف مذهبهم مما لو ذكرناه لطال الكتاب بذكره، ولتقصيرهم عن علم أصول مذهبهم صار أحدهم إذا لقي مخالفا ممن يقول بقول أبي حنيفة، أو الشافعي، أو داود بن علي، أو غيرهم من الفقهاء وخالفه في أصل قوله بقي متحيرا ولم يكن عنده أكثر من حكاية قول صاحبه) [2].

فابن عبد البر القرطبي (ت: ٣٦٨) ينعي على أهل بلده، ما صاروا إليه من ابتعادهم عن كتاب الله وسنّة رسوله – صلى الله عليه وسلم –، والعمل بعلم الفروع التي لَا حَدّ لها ولا نهاية.

المطلب الثالث: شروط الاجتهاد عنده:

إذا كانت قناعة الإمام ابن عبد البر أن الاجتهاد فريضة شرعية وضرورة علمية فكيف يمكن للطالب أن يصل إلى هذه الرتبة، ويبلغ هذه المنزلة الرفيعة؟

---

(١) جامع بيان العلم وفضله، ١١٣٤/٢.

(٢) جامع بيان العلم وفضله، ١١٣٤/٢.

يقف ابن عبد البر مع العلوم التي تمكن الطالب من بلوغ هذه المرتبة، ويحددها على النحو الآتي:

١ــ أول هذه العلوم : كتاب الله عز وجل أي: حفظه وفهمه، يقول: (فأول العلم حفظ كتاب الله عز وجل وتفهمه وكل ما يعين على فهمه فواجب طلبه معه ولا أقول: إن حفظه كله فرض ولكني أقول: إن ذلك شرط لازم على من أحب أن يكون عالما فقيها ناصبا نفسه للعلم ليس من باب الفرض)[١].

٢ــ سنة رسول الله صلى الله عليه و سلم: لأنها بيان للقرآن، وتوضيح لأحكامه مع التركيز على أحاديث الأئمة الثقات يقول: (ثم ينظر في السنن المأثورة الثابتة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فبها يصل الطالب إلى مراد الله عز وجل في كتابه وهي تفتح له أحكام القرآن فتحًا، وفي سير رسول الله صلى الله عليه وسلم تنبيه على كثير من الناسخ والمنسوخ في السنن ومن طلب السنن فليكن معوله على حديث الأئمة الثقات الحفاظ الذين جعلهم الله عز وجل خزائن لعلم دينه وأمناء على سنن رسوله صلى الله عليه وسلم كمالك بن أنس الذي قد اتفق المسلمون طرا على صحة نقله ونقاوة حديثه وشدة توقفه وانتقاده ومن جرى مجراه من ثقات علماء الحجاز والعراق والشام) [٢].

٣ــ كذلك معرفة الناسخ والمنسوخ، فقد عقد في جامع بيان العلم و فضله: باب أنه ليس من العلوم علم واجب إلا ناسخ القرآن ومنسوخه.[٣]

٤ــ كذلك معرفة اللغة بألفاظها، وقواعدها يقول: (ومما يستعان به على فهم الحديث ما ذكرناه من العون على كتاب الله عز وجل وهو العلم بلسان العرب ومواقع كلامها وسعة لغتها وأشعارها ومجازها وعموم لفظ مخاطبتها وخصوصه وسائر مذاهبها لمن قدر فهو شيء لا يستغنى عنه، وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يكتب إلى الآفاق أن يتعلموا السنة والفرائض واللحن يعني النحو كما يتعلم القرآن، وقد تقدم ذكر هذا الخبر عنه فيما سلف من كتابنا)[٤].

---

(١) جامع بيان العلم وفصله، ١١٢٩/٢.

(٢) جامع بيان العلم وفصله، ١١٢٩/٢.

(٣) جامع بيان العلم وفصله، ١١٢٩/٢.

(٤) جامع بيان العلم وفصله، ١١٢٩/٢.

٥ــ معرفة أحوال نقلة الحديث ومدى ثقتهم، يقول:(ويلزم صاحب الحديث أن يعرف الصحابة المؤدين للدين عن نبيهم صلى الله عليه وسلم ويعنى بسيرهم وفضائلهم ويعرف أحوال الناقلين عنهم وأيامهم وأخبارهم حتى يقف على العدول منهم من غير العدول وهو أمر قريب كله على من اجتهد)[١].

٦ــ معرفة القياس، وإلحاق النظير بالنظير، وكيفية استعمال الرأي عند عدم النص، وقد عقد له بابًا في كتاب جامع بيان العلم و فضله.[٢]

وبعد أن أنهى الكلام على هذه العلوم المطلوبة ممن يريد أن يكون مجتهدًا تحدث عن أصناف المتعلمين، وأن منهم من يقنع بما عند إمام واحد، أو أهل قطر، وأن هذا– ولأن عد كافيًا– إلا أنه غير مغن، وليس سبيل الأئمة الذين هم أرباب الفتوى، وإذا كان لا بد من الوقوف مع إمام معين فالأحب عنده أن يكون ذلك الإمام هو الإمام مالك رحمه الله تعالى، في هذا يقول: (فمن اقتصر على علم إمام واحد وحفظ ما كان عنده من السنن ووقف على غرضه ومقصده في الفتوى حصل على نصيب من العلم وافر وحظ منه حسن صالح، فمن قنع بهذا اكتفى والكفاية غير الغنى، والاختيار له أن يجعل إمامه في ذلك إمام أهل المدينة دار الهجرة ومعدن السنة، ومن طلب الإمامة في الدين وأحب أن يسلك سبيل الذين جاز لهم الفتيا نظر في أقاويل الصحابة والتابعين والأئمة في الفقه) [٣].

فمن أحب الاقتصار على أقاويل علماء الحجاز اكتفى إن شاء الله واهتدى، وإن أحب الإشراف على مذاهب الفقهاء متقدمهم ومتأخرهم بالحجاز والعراق وأحب الوقوف على ما أخذوا وتركوا من السنن وما اختلفوا في تثبيته وتأويله من الكتاب والسنة كان ذلك له مباحا ووجها محمودا إن فهم وضبط ما علم، أو سلم من التخليط نال درجة رفيعة ووصل إلى جسيم من العلم واتسع ونبل إذا فهم ما اطلع، وبهذا يحصل الرسوخ لمن وفقه الله وصبر على هذا الشأن واستحلى مرارته واحتمل ضيق المعيشة فيه.[٤]

---

(١) جامع بيان العلم ٢/١١٣٤.

(٢) جامع بيان العلم، ٢/٨٦٩.

(٣) جامع بيان العلم، ٢/١١٣٤.

(٤) جامع بيان العلم وفصله،٢/١١٣٤.

وهذا النوع يسمى بالاتباع بهذا اللفظ ففي الاستذكار يقول: (أما طريق الاتباع فما قاله الجمهور، وأما طريق القياس فما قاله أبو ثور)[1].

أما التقليد عنده فمذموم وفاسد، فقد عقد بابًا لفساد التقليد ونفيه، والفرق بينه وبين الاتباع، ومن إنصافه التزامه الطريق الوسط استثنى من ذلك العامة وأجاز لهم التقليد، فقال:(وهذا كله لغير العامة؛ فإن العامة لا بد لها من تقليد علمائها عند النازلة تنزل بها؛ لأنها لا تتبين موقع الحجة ولا تصل لعدم الفهم إلى علم ذلك؛ لأن العلم درجات لا سبيل منها إلى أعلاها إلا بنيل أسفلها، وهذا هو الحائل بين العامة وبين طلب الحجة، والله أعلم، ولم تختلف العلماء أن العامة عليها تقليد علمائها وأنهم المرادون بقول الله عز وجل {فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون} [النحل: ٤٣])[2].

(١) الاستذكار ، ١٩٦/٦.

(٢) الاستذكار، ١٩٦/٦.

الخاتمة:

وأخيرًا نختتم هذا المقام بهذه الوصية التي أوصى فيها ابن عبد البر طلبة العلم في زمانه مبيناً لهم الطريق الذي ينبغي للطالب أن يسلكه ليصل إلى مبتغاه يقول: فعليك يا أخي بحفظ الأصول والعناية بها واعلم أن من عنى بحفظ السنن والأحكام المنصوصة في القرآن ونظر في أقاويل الفقهاء فجعله عونا له على اجتهاده ومفتاحا لطرائق النظر وتفسيرا لجمل السنن المحتملة للمعاني، ولم يقلد أحدا منهم تقليد السنن التي يجب الانقياد إليها على كل حال دون نظر، ولم يرح نفسه مما أخذ العلماء به أنفسهم من حفظ السنن وتدبرها واقتدائهم في البحث والتفهم والنظر وشكر لهم سعيهم فيما أفادوه ونبهوا عليه وحمدهم على صوابهم الذي هو أكثر أقوالهم ولم يبرئهم من الزلل كما لم يبرئوا أنفسهم منه فهذا هو الطالب المتمسك بما عليه السلف الصالح وهو المصيب لحظه والمعاين لرشده والمتبع سنة نبيه صلى الله عليه وسلم وهدي صحابته رضي الله عنهم وعمن اتبع بإحسان آثارهم، ومن أعفى نفسه من النظر وأضرب عما ذكرنا وعارض السنن برأيه ورام أن يردها إلى مبلغ نظره فهو ضال مضل، ومن جهل ذلك كله أيضا وتقحم في الفتوى بلا علم فهم أشد عمى وأضل سبيلا.(١)

(١) جامع بيان العلم وفصله،٢/١١٣٤.

فهرس المصادر و المراجـــــــع:

- ابن عبد البر حياته وآثاره ومنهجه في فقه السنة، لمحمد بن يعيش، طبعـــة وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، ١٩٩٠م.
- الإحكام في أصول الأحكام للإمام ابن حزم تحقيق أحمد شاكر دار الآفاق الجديـــدة بيروت ط٢، ١٩٨٣م.
- الاستذكار، أبو عمر يوسف بن عبد الله بن محمد بن عبد البر بن عاصم النمـــري القرطبي (ت ٤٦٣هـــ)، تحقيق: سالم محمد عطا، محمد علي معوض، دار الكتـــب العلمية – بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤٢١ – ٢٠٠٠م.
- التاج المكلل من جواهر مآثر الطراز الآخر والأول، أبو الطيب محمد صديق خـــان بن حسن بن علي ابن لطف الله الحسيني البخاري القِنَّوجي (ت ١٣٠٧هـــ)، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، قطر، الطبعة: الأولى، ١٤٢٨ هـــ – ٢٠٠٧ م.
- تاريخ الإسلام وَوَفيات المشاهير وَالأعلام، شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمـــد بن عثمان بن قَايْماز الذهبي (المتوفى: ٧٤٨هـــ)، تحقيق: الـــدكتور بشـــار عـــوّاد معروف، دار الغرب الإسلامي، الطبعة: الأولى، ٢٠٠٣ م.
- تاريخ علماء الأندلس لابن الفرضي ن الدار المصرية للتأليف و الترجمة ١٩٦٠م.
- تذكرة الحفاظ، للذهبي، دار إحياء التراث العربي، بيروت لبنان، مطبوعات دائرة المعارف العثمانية، د.ت.
- ترتيب المدارك وتقريب المسالك، أبو الفضل القاضي عياض بن موسى اليحصـــبي (ت ٥٤٤هـــ)، تحقيق: سعيد أعراب وآخرون، مطبعة فضالة – المحمدية، المغرب، الطبعة: الأولى، د.ت.
- التكملة، لابن الأبار، نشر عزت العطار ١٩٥٦م.
- التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد في حديث رسول اللَّه –صلى اللَّه عليه وسلم، أبو عمر بن عبد البر النمري القرطبي (٣٦٨ – ٤٦٣ هـــ)، حققـــه وعلـــق عليه: بشار عواد معروف، وآخرون، مؤسسة الفرقان للتراث الإســـلامي – لنـــدن، الطبعة: الأولى، ١٤٣٩ هـــ – ٢٠١٧ م.
- جامع البيان عن تأويل أي القرآن، دار الفكر بيروت١٩٨٤ م.

- جامع بيان العلم وفضله، أبو عمر يوسف بن عبد البر (ت ٤٦٣ هـــ)، تحقيــق: أبوالأشبال الزهيري، دار ابن الجوزي – السعودية، الطبعة: الأولى، ١٤١٤ هــ – ١٩٩٤ م.
- الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب لابن فرحون. دار الكتــب العلميــة بيروت، د.ت.
- الذخيرة لابن بسام طبعة لجنة التأليف و الترجمة و النشر القاهرة ١٩٤٢م.
- سير أعلام النبلاء، شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان بــن قَايْمــاز الذهبي (المتوفى : ٧٤٨هــ)، تحقيق : مجموعة من المحققين بإشراف الشيخ شعيب الأرناؤوط، مؤسسة الرسالة، الطبعة : الثالثة ، ١٤٠٥ هــ / ١٩٨٥ م
- شذرات الذهب في أخبار من ذهب، عبد الحي بن أحمد بن محمد ابن العماد العَكري الحنبلي، أبو الفلاح (ت ١٠٨٩ هــ)، حققه: محمود الأرناؤوط [ت ١٤٣٨ هـــ]، خرج أحاديثه: عبد القادر الأرناؤوط [ت ١٤٢٥ هــ]، دار ابن كثيــر، دمشــق – بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤٠٦ هــ – ١٩٨٦ م.
- الصلة في تاريخ أئمة الأندلس، أبو القاسم خلف بن عبد الملــك بــن بشــكوال (ت ٥٧٨هــ)، عني بنشره وصححه وراجع أصله: السيد عزت العطار الحســيني [ت ١٣٧٦ هــ]، مكتبة الخانجي، الطبعة: الثانية، ١٣٧٤ هــ – ١٩٥٥ م.
- لسان العرب، محمد بن مكرم بن على، أبو الفضل، جمــال الــدين ابــن منظــور الأنصاري الرويفعى الإفريقى (المتوفى: ٧١١هــ)، دار صادر – بيروت، الطبعة: الثالثة – ١٤١٤ هــ.
- المحصول في علم الأصول للإمام الرازي طه جابر العلــواني لجنــة البحــوث و التأليف و الترجمة السعودية ط١، ١٩٧٩م.
- المغرب في حلى المغرب، أبو الحسن على بن موسى بن سعيد المغربي الأندلســي (ت ٦٨٥هــ)، تحقيق: د. شوقي ضيف، دار المعارف – القاهرة، الطبعة: الثالثــة، ١٩٥٥م.
- وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، أبو العباس شمس الدين أحمد بــن محمــد بــن إبراهيم بن أبي بكر ابن خلكان البرمكي الإربلي (المتــوفى: ٦٨١هـــ)، تحقيــق: إحسان عباس، دار صادر – بيروت، د.ت.